



الإصلاح الاجتماعي والمعرفي من منظور القرآن الكريم عند الإمام بديع الزمان النورسي

د. قاسم بن عمر حاج محمد

جامعة غرداية

hadjkacem47@gmail.com

ملخص

اهتم البحث ببيان منهج الإصلاح الاجتماعي والمعرفي في القرآن الكريم وفق ما حلله وبينه النورسي من خلال كتبه: "مجموعة الرسائل العربية"، و"كليات رسائل النور"، حيث أبرز أسس الحياة الاجتماعية في المنظور الغربي ونظيرها في المنظور القرآني من خلال بيان مبادئها وكيفية معالجة القرآن للأمراض الاجتماعية ونماذج من حكمة التشريع في القرآن كتعدد الزوجات والزكاة والميراث، كما أبرز البحث أسس المعرفة وغاياتها في الحضارة الغربية ومقابلها في القرآن الكريم. وخلص إلى نتائج منها أن النورسي قد أسس من خلال رسائل النور لمفهوم مرجعية القرآن الكريم في كل شأن من شؤون الحياة، وأبرز شموليته وهيمته على كل المعارف الإنسانية، ومسأيرته لواقع الناس مهما تغيرت ظروفهم وأزمتهم، كما أثبت صلاحية القرآن الكريم في معالجة مشكلات الواقع رغم تعقدها وتشابكها.

الكلمات المفتاحية: النورسي، الإصلاح، الاجتماع، القرآن، المعرفة

Abstract

The research focused on the social and cognitive reform approach in the Holy Quran, as analyzed by Al-Nawras through the Arabic Message Group and the Letters of Light Colleges, which highlighted the foundations of social life in the Western perspective and the Quran. and examples of the wisdom of legislation in the Qur'an, such as polygamy, zakat and inheritance. The research also highlighted the foundations of the knowledge and its objectives in Western civilization and the corresponding in the Holy Quran. He concluded by saying that Nawras had established through his letters the concept of reference of the Holy Quran in all matters of life, and the most comprehensive and dominant on all human knowledge, and its relation to the reality of people no matter how their circumstances changed, It also proved the validity of the Holy Quran in addressing the problems of reality despite the complexity and intertwined.

Keywords : reform, knowledge, Norsis, Quran, society.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

مقدمة:

عاش الإمام النورسي في حياته واقعا مؤسفا طبع حياة المسلمين أفرادا وأما، والسبب في ذلك كما يراه ترك الأمة لشرع الله ومنهاجه متمثلا أساسا في القرآن الكريم، وكذا اتباعها للغرب شبرا بشبر وذراعا بذراع، فكان جهده الإصلاحية برمته دعوة صريحة لاستدعاء القرآن الكريم إلى الواقع الحياتي والمعرفي، ليكون المرجعية العظمى للأمة في تصحيح عقيدتها وثقافتها، وإقامة حضارتها ومدنيتها، وعرض القرآن بديلا حضاريا معرفيا، ومنهجيا حياتيا لا تصلح حياة البشر إلا بهدياته. وكانت هذه القناعة قد تبلورت في نفسه بشكل أعمق بعدما قرأ خبراً عن خطاب لوزير المستعمرات البريطانية وليم غلادستون في مجلس العموم البريطاني الذي خاطب النواب وفي يده نسخة من القرآن قائلاً: «ما دام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نستطيع أن نحكمهم، فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به». فغضب النورسي غضباً شديداً، وعلم أن أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة ضد القرآن الكريم، وغير اهتمامه للتفرغ لدراسة القرآن وإدراك معانيه وإثبات حقائقه.

ولم يعرف بعد ذلك سوى القرآن هدفاً لعلمه وغاية لحياته. وأصبحت المعجزة المعنوية للقرآن دليلاً ومرشداً له. وقال لمن حوله: «لأبرهنن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها.

وأحاول في هذا البحث بيان منهج الإصلاح الاجتماعي والمعرفي في القرآن الكريم وفق ما حلله وبينه النورسي من خلال كتبه: "مجموعة الرسائل العربية"، و"كليات رسائل النور"، وذلك وفق الخطة الآتية:

المطلب الأول: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور الغربي والمنظور القرآني.

أولاً: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور الغربي.

ثانياً: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور القرآني.

أ- مبادئ الحياة الاجتماعية.

ب- الأمراض الاجتماعية وعلاجها في القرآن الكريم.

ج- نماذج من التشريعات الاجتماعية في القرآن الكريم.

- تشريع الزكاة وتحريم الربا
 - تشريع تعدد الزوجات.
 - تشريع الميراث.
 - الأمر بالحجاب وتحريم الصور والتماثيل.
- د- مخطط يوضح أسس الحياة الاجتماعية في المنظور القرآني والمنظور الغربي وفق رؤية الإمام النورسي

المطلب الثاني: أسس المعرفة وغاياتها في المنظور الغربي والمنظور القرآني.

أولاً: أسس المعرفة وغاياتها في الحضارة الغربية.

ثانياً: أسس المعرفة وغاياتها في القرآن الكريم.

خاتمة.

مصادر ومراجع البحث.

المطلب الأول: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور الغربي والمنظور القرآني.

أولاً: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور الغربي.

حدد النورسي خمسة أسس قامت عليها الحضارة الغربية هي:

- 1- القوة القائمة على التعدي والظلم.
 - 2- خدمة المصلحة والمنفعة الشخصية بغض النظر عن الوسيلة.
 - 3- الصراع المستمر المؤدي إلى التنازع.
 - 4- اختصار العلاقة بين الأمم والمجموعات البشرية في العنصرية والقومية الضيقة، مما يؤدي على دوام الصدام بين الحضارات.
 - 5- تقديس الذات والأنا، على حساب المصلحة العامة.¹
- وكان من نتيجة ذلك تحويل معظم حياة الناس إلى شقاء، بينما اقتصرَت السعادة بمعناها المادي المحض الزائف في قلة منهم، وهم الأقوى والأقدر على غيرهم بالحيلة والمكر.

1- بديع الزمان سعيد ميرزا النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان الصالح، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992: ص 139-140.

وقد وافق النورسي في نظرتة هذه جمع من المفكرين الغربيين، فنجد روجيه غارودي مثلا يرجع هذا التحدر في الغرب إلى شيوع عقيدة (وحدانية السوق)، أي قيام كل العلاقات والقيم الإنسانية على منطق المادة والمنفعة، قال: "تنبع كل مظاهر هذا السقوط من منطق "اقتصاد السوق"، الذي شكّل في مرحلته الأخيرة ديانة سيطرت على كل شيء، تلك الديانة لا تجرؤ على التصريح بأن اسمها: وحدانية السوق".¹

ويبرز هذا بجلاء في تعليقه على كتاب (نهاية التاريخ) لفوكوياما الذي مجّد فيه الحضارة الأمريكية باعتبارها قمة العطاء والرقي الإنساني ونهايته، قال: "إذا قادنا هذا العنوان إلى شيء، فإلى نهاية الإنسان وتجريده من أخص خصوصياته، أي تسامي المشروع الإنساني والاستسلام لحتميات اقتصادية كأنها قوانين طبيعية، إنه هبوط بالإنسان ليعيش في غابة الحيوان حيث ينهش القوي الضعيف، إن ما يميّز وحدانية السوق في الواقع هو تلك اللبرالية الشمولية، وهذا الاحتقار لحرية الإنسان حين تجرّده هي ذاتها من أبعاده الخصوصية، وهي ان يكون فاعلا ومنفذا لمشروعاته وتطلعاته وإمكاناته الخاصة التي تتجاوز الغرائز الحيوانية والأهداف المادية النفعية الشخصية".²

وقد ولدت هذه الأسس السائدة في الحياة الاجتماعية ظاهرة الطبقة المقيتة بين الأغنياء والفقراء، والتي تزداد وتحتدّ بمرور الوقت، ولا تزال إلى الآن قائمة، يقول النورسي: "إنّ أسّ أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة، كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا، كما أثبت ذلك في إشارات الإعجاز.

الكلمة الأولى: إن شبعت، فلا علي أن يموت غيري من الجوع.
الكلمة الثانية: اكتسب أنت، لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا.

1- روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، تعريب: عمرو زهيري، الناشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1420-1999: ص 39.

2- المصدر نفسه: ص 40.

إنّ الكلمة الأولى قد ساقّت الخواص إلى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع، فسلبت البشرية الراحة والأمان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد.

فالمدينة بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الأخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عجزت عن أن تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن أن تضمّد جرحي الحياة البشرية الغائرين¹.

ثانياً: أسس الحياة الاجتماعية في المنظور القرآني.

أ- مبادئ الحياة الاجتماعية:

قابل النورسي أسس الحضارة الغربية الخمسة بما هو موجود عند المسلمين من خلال بيانات القرآن الكريم، فحدد خمسة مبادئ للحياة الاجتماعية في الإسلام هي:

- 1- أنها تستند إلى الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن.
- 2- هدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب.
- 3- أساس العلاقات التي تربط بين المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجنبي.
- 4- تقوم على التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساندهم والإتحاد.

5- تضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر.²
وقد استنبط هذه الأسس من خلال الآيات الداعية إلى مبدأ الوحدة العقدية أي وحدانية الله، بمقابل التشتت الفكري والعقدي المؤدي إلى التيه والضلال، و مبدأ الاستقامة بمقابل الانحراف والتفلت السلوكي، ومبدأ التراضي والتصدق والتداول في المعاملات المالية بمقابل الاستغلال والربا والاكنتاز.

1- يقصد بالجرحين الغائرين الحريين العالميتين الأولى والثانية.

2- الكلمات: ص 141.

يقول في بعض محاوراته جوابا على سؤال: ماذا قدّم القرآن للفكر وللحياة؟، قال: "التوحد للفكر، والاستقامة للحياة. وشاهدي في هذا: قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، و﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112].¹

ب- الأمراض الاجتماعية وعلاجها في القرآن الكريم.

لم يقتصر الانحراف الاجتماعي على مجتمعات الغربيين فقط، بل امتد إلى المسلمين أيضا، نتيجة تقليدهم لطروحات الغرب وطريقة حياته، نجد ذلك جليا في ما شرعه البرلمان التركي مثلا عام 1926 من قوانين منافية للإسلام، منها: تحريم تعدد الزوجات، إلغاء المهر وعدم فرضه على الزوج، إلغاء حق الزوج في الطلاق، حرية زواج المسلمة التركية من نصراني أو يهودي، دون اشتراط إسلامه، التسوية بين الذكر والأنثى في الميراث، إلغاء نظام الإرث بالتعصيب، والإرث بالقرابة البعيدة، وضع حد لسن الزواج، إلغاء نظام فصل النساء عن الرجال في الحافلات والقطارات والسفن ودور السينما.

وكان من نتيجة هذه التشريعات العلمانية إضافة إلى إلغاء المحاكم الشرعية واعتماد القانون المدني الغربي انتشار الفوضى في المجتمع التركي إذ انطبع بطابع الحضارة الغربية الصرفة من مظاهر العري ودور البغاء والبنوك الربوية.² وقد عايش النورسي هذه الأوضاع، فانبرى لمواجهتها ومعالجتها، من خلال توجيهات القرآن الكريم كما سيأتي.

وقد لخص النورسي مظاهر ونتائج ذلك الانحراف في ستة أمراض يعيשהا المجتمع المسلم وهي:

أولاً: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثاً: حبّ العداوة.

1- انظر: الكلمات: ص 895، الشعاعات: ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1993: ص 474. (بتصرف).

2- عبد الله محمود الطنطاوي، منهج الإصلاح والتغيير عند بدیع الزمان النورسي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418-1997، ص 66-67.

رابعاً: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

خامساً: سريان الاستبداد سريان الأمراض المعدية المتنوعة.

سادساً: حصر المهمة في المنفعة الشخصية.¹

ثم يبين منهج القرآن الكريم في علاج تلك الأمراض من خلال دعوته إلى عدة

فضائل هي:

الأمل: بمعنى شدة الاعتماد على الرحمن الإلهية والثقة بها، وعدم اليأس من

معطيات الواقع، وذلك ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾

[الزمر:53].

الصدق: لأن انعدام الأمن والاستقرار في الوقت الحاضر سببه الكذب الرهيب

الذي تقترفه البشرية، وتزييفها وافتراءاتها، ما هو إلا نتيجة كذبها وسوء استعمالها

للمصلحة.

المحبة: بديلاً عن العداوة، حتى مع غير المسلمين، وفي ذلك يقول: "لقد انتهى

عهد العداوة والخصام. ولقد أظهرت الحربان العالميتان مدى ما في روح العداوة من

ظلم فظيع ودمار مريع. وتبين أن لا فائدة منها البتة. وعليه فلا ينبغي أن تجلب سيئات

أعدائنا - بشرط عدم التجاوز- عداوتنا، فحسبهم العذاب الإلهي ونار جهنم".

الشورى: وقد دلت عليها آيات كثيرة من مثل قوله الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:38]، ويشرح النورسي دور الشورى في الحياة الاجتماعية شرحاً

رياضياً بقوله: "إن الشورى الحق تولد الإخلاص...، إذ إن ثلاث ألفات هكذا (111)

تصبح مائة وإحدى عشرة، فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص

أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص، ويخبرنا التاريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال

يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص بالإخلاص والتساند الحقيقي والشورى

فيما بينهم".²

1- الخطبة الشامية، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992: ص 21.

2- المصدر نفسه: ص 21-54.

ويعدد في موضع آخر أسس إصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية في خمسة أخلاق، قال: "هناك خمسة أسس ضرورية لإنقاذ هذه الأمة وهذا الوطن في حياتها الاجتماعية والسياسية ونجاتها من الفوضى والإرهاب ومن المخاطر العظيمة: الأول: الرحمة. الثاني: الاحترام. الثالث: الأمن والثقة. الرابع: اجتناب المحرمات والتمييز بين الحرام والحلال. الخامس: الطاعة وترك التسبب".¹

ج- نماذج من التشريعات الاجتماعية في القرآن الكريم.

يبين النورسي في مواضع عدة من كتاباته منهج القرآن الكريم في بناء الحياة الاجتماعية من خلال استعراضه لبعض التشريعات التي تنظم المجتمع المسلم، وتتضمن علاجا للمشكلات الشائعة في الغرب، وهذه الأسس هي:

أولاً: تشريع الزكاة وتحريم الربا.

مما يواجهه الغرب في حضارته منذ انطلاقتها مشكلة الطبقة الاجتماعية، والتي عبر عنها النورسي بالجملتين الواردتين في المطلب السابق، حيث رأى أن علاجها إنما يكون بالتزام التشريعين الأساسيين في الاقتصاد الإسلامي، وهما: فرض الزكاة، وتحريم الربا.

قال: "أما القرآن الكريم فإنه يقلع الكلمة الأولى من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة، ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بحرمة الربا. نعم، إن الآيات القرآنية تقف على باب العالم قائمة للربا: الدخول ممنوع، وتأمّر البشرية: أوصدوا أبواب الربا لتسد أمامكم أبواب الحروب، وتحذر تلاميذ القرآن المؤمنين من الدخول فيها".²

وقد سئل عن منهج القرآن في علاج الصراعات الحاضرة؟، فقال: "أقول: بتحريم الربا وفرض الزكاة وشاهدي قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]، ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43].

1- ملحق قسطنوني، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1995: ص 116.

2- الكلمات: ص 518.

ويقول: كيف ينظر إلى الاضطرابات البشرية؟، أقول: السعي هو الأساس، وإلا تتكسد ثروة الإنسان بيد الظالمين، ولا يكنزوها، وشاهدي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:39]، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:34]¹.
ثانيا: تشريع تعدد الزوجات.

من أكبر مشكلات المدينة الغربية شيوع العلاقات غير الشرعية بمختلف صورها، ومرد ذلك -كما يرى النورسي- إلى شيوع مبدأ الحرية المطلقة، وفلسفة الغرب ونظرتة إلى الزواج باعتباره مجالا لقضاء الشهوة فحسب، وكذا منعه لتعدد الزوجات باعتباره انتقاصا لكرامة المرأة، وقد ولد هذا المنع كبتا جنسيا لم يجد الرجل مجالا لإفراغه إلا باتخاذ علاقات خارج أطر الزواج، بينما عالج الإسلام الظاهرة بتشريعه للتعدد، مع أن فيه مقصد آخر وهو تكثير النسل وهو من الأهداف السامية للزواج أيضا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:3].

ولو أن الآية قد جاءت في سياق الحديث عن حقوق اليتامى ورعايتها، ولم تشر إلى موضوع التعدد أصالة، إلا أن بين الموضوعين ترابط وثيق لتعلقهما بالحياة الأسرية، وكثيرا ما ترتبط حالات التعدد بوجود اليتامى.

وقد لخص النورسي الحكمة من تعدد الزوجات من خلال هذه الآية، وبين دور هذا التشريع في معالجة مشكلة الانحلال الخلقي وشيوع الفحش في الحضارة الغربية. قال: "إن المدينة الحاضرة لا تقبل تعدد الزوجات، وتحسب ذلك الحكم القرآني مخالفاً للحكمة ومنافياً لمصلحة البشر. نعم، لو كانت الحكمة من الزواج قاصرة على قضاء الشهوة للزم أن يكون الأمر معكوساً، بينما هو ثابت حتى بشهادة جميع الحيوانات وبتصديق النباتات المتزاوجة، أن الحكمة من الزواج والغاية منه إنما هي

1- انظر: الكلمات: ص 895.

التكاثر وإنجاب النسل، أما اللذة الحاصلة من قضاء الشهوة فهي أجرة جزئية تمنحها ا لرحمة الإلهية لتأدية تلك المهمة.

فما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل ولبقاء النوع حكممة وحقيقة، فلا شك أن المرأة التي لا يمكن أن تلد إلا مرة واحدة في السنة ولا تكون خصبة إلا نصف أيام الشهر وتدخل سن اليأس في الخمسين من عمرها لا تكفي الرجل الذي له القدرة على الإخصاب في أغلب الأوقات حتى وهو ابن مائة سن، لذا تضطر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش".¹

ثالثا: تشريع الميراث.

من الشبهات المثارة حول التشريع الإسلامي اتهامه بهضم حقوق المرأة لاسيما المادية منها، ويتجلى ذلك فيما قدره القرآن الكريم للمرأة من الميراث، إذ هو على النصف من حظ الرجل.

والعدل يقتضي المساواة بينهما، بل قد تحتاج الأنثى لضعفها وقلة حيلتها إلى المال أكثر مما يحتاج الرجل العامل المكتسب في العادة.

وقد فند العلماء المسلمون هذه الشبهة، وبينوا أن تقسيم القرآن الكريم هو عين العدل لا العكس، ذلك أن المعتبر فيما أعطي للرجل هو مقابل تحمله لمسؤولية النفقة على أسرته، بينما أفضى الإسلام المرأة من تلك التبعة مع وجود الرجل، كما أن هناك حالات قد تأخذ الأنثى أكثر مما يأخذه الرجل.

ويرى النورسي أن ادعاء الغربيين هذه الدعوى إنما هو نظر جزئي عاطفي بحت، لا يسنده النظر العقلي المنطقي، وأنّ الأساس في تشريع أي قانون إنما هو مصلحة الأكثرية ولو مع تضرر بعض الأقلية، وذلك هو الواقع في نظام الإرث، إذ نجد الرجل في العادة هو المتحمل للمسؤولية المادية، ولذلك أخذ الضعف من المرأة، وقد يقع في بعض الحالات تحمل المرأة لعبء الإنفاق، ولكنه استثناء وشذوذ عن القاعدة، فلا يمكن أن يقاس عليه، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه منتقدوا نظام الإرث في الإسلام.

1- المصدر نفسه: ص 518-519.

يقول: "إن المدنية التي لا تتحاكم إلى المنطق العقلي تتقد الآية الكريمة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، التي تمنح النساء الثلث من الميراث، أي نصف ما يأخذه الذكر. ومن البديهي أن أغلب الأحكام في الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس، فغالبية النساء يجدن أزواجهن يعيلوهن ويحموهن، بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهم وتحمل نفقاتهن. فإذا ما أخذت الأنثى الثلث من أبيها، أي نصف ما أخذه الزوج من أبيها، فإن زوجها سيستد حاجتها، بينما إذا أخذ الرجل حظين من أبيه فإنه سينفق قسطاً منه على زوجته، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساوياً لأخته، وهكذا تقتضي العدالة القرآنية"¹.

رابعا: الأمر بالحجاب وتحريم التماثيل والصور.

من وجهة نظر النورسي فإن التماثيل والتصاوير في معظمها محرمة ممنوعة إذ تؤدي إلى انحراف المعتقد لحملها رائحة التأليه والتقدیس، ومرد ذلك إلى نشأته المحافظة جدا، والتي تمنع أي مظهر من مظاهر الزينة والترف الزائدة. ولعل ما جعله متشدا أكثر انتشار تماثيل وصور مصطفى أتاتورك زعيم العلمانية في تركيا، التي لاقت التقديس من مؤيديه، وتمأهت الجماهير في شخصه، وذلك عين الاستبداد والقهر الاجتماعي والفكري.

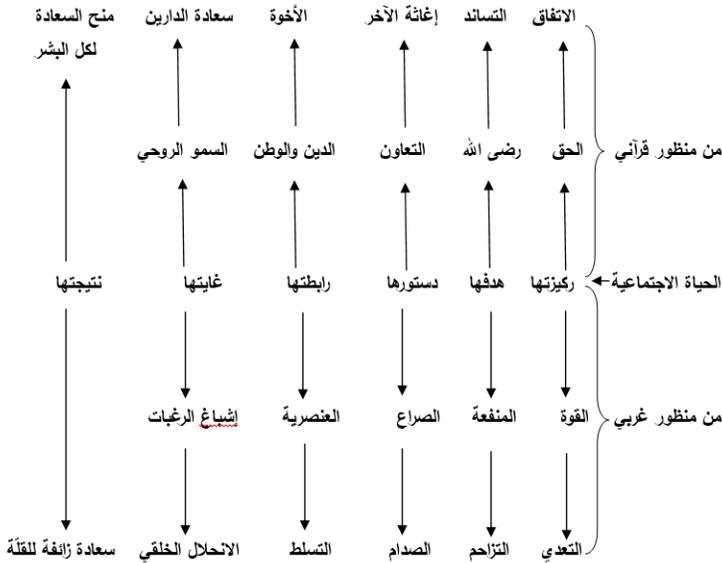
وبالإضافة إلى ذلك يشدد في مسألة الحجاب، ويقيسها في الحكم على مسألة اتخاذ الأصنام، من حيث النتائج التي تؤديان إليها، وهي انتشار الرذيلة، فكما تهيج المرأة المتبرجة بمفاتنها شهوة الرجل، فإن الصور كذلك من شأنها أن تفعل نفس التأثير في النفس، ولذلك جاء الإسلام بتحريمها، وهو صادق إلى حد كبير في ذلك، إذ لم تنتشر الفاحشة والشذوذ في المجتمعات إلا بانتشار الصور والأفلام بمختلف أنواعها.

يقول مدافعا عن وجهة نظره: "إن القرآن الكريم مثلما يمنع بشدة عبادة الأصنام يمنع كذلك اتخاذ الصور التي هي شبيهة بنوع من اتخاذ الأصنام، أما المدنية الحاضرة فإنها تعد الصور من مزاياها وفضائلها، وتحاول أن تعارض القرآن، والحال أن الصور

1- انظر: الكلمات: ص 475، والمكتوبات، ترجمة إحسان الصالحی، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992: ص 48-49.

أيًا كانت، ظلية أو غيرها، فهي: إما ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى متجسّم، حيث تهيج الأهواء وتدفع الإنسان إلى الظلم والرياء والهوى".
ويقول بخصوص الغاية من الأمر بالحجاب ومنع التبرج: "إن القرآن يأمر النساء أن يحتجن بحجاب الحياء، رحمة بهنّ وصيانة لحرمتهن وكرامتهن ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة معادن الشفقة والرأفة وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة تحت أقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكنّ آلة لهوسات الرذيلة ومتعة تافهة لا قيمة لها.
أما المدنية فإنها قد أخرجت النساء من أوكارهن وبيوتهنّ ومزقت حجابهنّ وأدت بالبشرية أن يحنّ جنونها، علمًا أن الحياة العائلية إنما تدوم بالمحبة والاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة، بينما التكشف والتبرج يزيلان تلك المحبة الخالصة والاحترام الجاد ويسمّمان الحياة العائلية؛ ولا سيما الولع بالصور فإنه يفسد الأخلاق ويهدمها كليًا، ويؤدي إلى انحطاط الروح وترديها"¹.

د- مخطط يوضح أسس الحياة الاجتماعية في المنظور القرآني والمنظور الغربي وفق رؤية الإمام النورسي.²



1- الكلمات: ص 475-477.

2- أنظر: د زياد خليل محمد الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، الناشر: دار النيل، إزمير، تركيا، الطبعة الأولى، 1419-1998: ص 246.

المطلب الثاني: أسس المعرفة وغاياتها في المنظور الغربي والمنظور القرآني. أولاً: أسس المعرفة وغاياتها في الحضارة الغربية.

شهد العالم الغربي لاسيما في العصور الوسطى تضاربا وتصادما بين مفهومي الدين والعلم والعلاقة بينهما، نتج عن إفراط بعض رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية في إخضاع كل الأشياء ولو كانت علمية بحثة إلى سلطان الكنيسة، وتفسير الظواهر تفسيراً دينياً لاهوتياً، باعتبارها جزءاً منه. وتولد عن هذه النظرة المتشددة آراء وفلسفات دعت إلى فصل العلم عن الدين، والنظر إليه كعقبة مانعة من التطور، كردّ فعل متطرف على موقف بعض رجال في الكنيسة الكاثوليكية. ويمكن اختصار مبادئ المعرفة لدى معظم الغربيين المعاصرين في العنصرين الآتيين:

1- إلغاء البعد الغيبي في تفسير الكون والحقائق العلمية.

وقد تبنى هذا المبدأ فلاسفة كبار أمثال جون لوك (ت 1704) ودافيد هيوم (ت 1776)، واسبينوزا (ت 1677)، وفرانسيس بيكون (ت 1626) خاصة في كتابه "الأرغانون الجديد"، الذي دعا فيه إلى فصل العلم البشري عن الوحي الإلهي، وتأسيسه على مبادئ ومعطيات الطبيعة لا على الميتافيزيقيا التجريدية.¹

2- تقديس العقل والتسليم باستنتاجاته.

وقد تجلّى هذا المبدأ بوضوح في كتابات الفيلسوف الألماني هيغل (ت 1831)، والذي توصل فيها -من خلال هذا المبدأ- إلى تفسير الحضارة الإنسانية وتاريخها تفسيراً جدلياً، قائماً على الصراع الأبدي المستمر تماماً مثلما هو في عالم الحيوان، وكثيراً من النزاعات والحروب قد قامت على أساس تلك الفلسفة.

وكان من نتاج اعتماد المعرفة الغربية على هذين الأساسين أن اضطربت في التوفيق بين عالم المادة وعالم الروح، وأبعدت الدين عن الواقع واعتبرته خرافة ودجلاً، وشككت في وجود الله تعالى، وأنكرت ما وراء الغيب من المعاد، وأغرقت المجتمع الإنساني في عالم من التشاؤم بسبب الخواء الروحي، ما جعل بعض الفلاسفة

1- انظر: د. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1997: ص 57-66.

ينقم على العقل نفسه كرد فعل مضاد على النتائج التي أدى إليها، يقول ألبرت كامو (ت 1960): "لو كنت شجرة من الأشجار، أو قطا بين الحيوانات، لكان لهذه الحياة معنى، أو على الأصح لما كانت المشكلة مطروحة، لأنني أكون متميا إلى هذا العالم - هذا العالم الذي أقاومه بكل إدراكي - إن هذا العقل السخيف هو ما يجعلني متضادا مع كل الموجودات"¹.

ومما تولد عن هذين الأساسين أيضا نظريات غير سوية، سرعان ما فندها التطور العلمي المتسارع، أمثال نظرية التطور لداروين، ونظرية اللذة في علم النفس لفرويد وغيرها، التي شرعت للإباحية الجنسية، والانحلال الخلقي.

كما كان لهذا الانحراف المعرفي - أي تفسير كل شيء تفسيراً مادياً - كان له بعد عقدي تمثل في تقديس المادة والإيمان بها ونكران الغيب الذي يتمثل في أعظم صوره في الذات الإلهية المقدسة، وقد عبّر عن ذلك النورسي بقوله: "إن هؤلاء التعساء قد وقعوا في عبادة آلهة كثيرة لأنهم أعرضوا عن الوحدانية المطلقة، أي لأنهم لم يؤمنوا باله واحد، أصبحوا مضطرين إلى قبول ما لا نهاية له من الآلهة، أي لأنهم لم يستوعبوا بعقولهم القاصرة أزلية الذات الأقدس وخلاقته - وهما صفتان لازمتان ذاتيتان له سبحانه فقد أصبحوا - بحكم مسلكهم الضال - مضطرين إلى قبول أزلية ذرات جامدة لا حدود لها ولا نهاية، بل إلى قبول ألوهية الذرات"².

على أن هذا التأثير السلبي لم يقتصر على العالم الغربي فقط، بل امتد إلى العالم الإسلامي أيضا، لاسيما في عهد الدولة العثمانية، إذ حاول بعض قادتها استيراد النمط الغربي برمته بغية التطوير والإصلاح، فيما يسمى بعلمنة الدولة على يد مصطفى أتاتورك وقبله السلطان سليم الثالث.³

1- د. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د ت: ص 106.

2- اللمعات: ترجمة إحسان الصالح، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1993: ص 561.

3- انظر: د. عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثانية، 1412-1992: ص 30.

ويصف الشيخ محمد الغزالي هذا التأثير الوارد من الغرب في الجانب المعرفي على المسلمين فيقول: "ظهرت في العالم الإسلامي بدعة ازدواج التعليم، وانقسامه إلى ديني ومدني...، والهدف الذي خطط له الغزو الثقافي أن يتلاشى التعليم الديني، وتتحول جامعاته الكبرى إلى جامعات مدنية، وأمله - إن لم يقع ذلك قريباً - أن يكون المنتسبون إلى الدين موضع الإهمال والزراية بضحالتهم وعجزهم وتنكر الدنيا لهم...، واتجه الغزو الثقافي إلى لغة القرآن فأصابها إصابات قاتلة، إذ عزل هذه اللغة عزلاً تاماً عن تدريس العلوم...، والمقصود بعد موت العربية - لا قدر الله - أن يوضع القرآن في المتاحف، لأنه لا يوجد بعد ذلك من يفهمه".¹

ثانياً: أسس المعرفة وغاياتها في القرآن الكريم.

عاش الإمام النورسي هذه الحملة من الغزو الثقافي الغربي، والتي تولاها سلاطين الدولة العثمانية أنفسهم، فكان لابد من مواجهة ذلك الغزو، الذي أدى إلى انحدار الأخلاق واضمحلال مظاهر الدين في المجتمع.

وقد لخص أسس المعرفة وغاياتها في القرآن الكريم في ست عناصر بينها بقوله: "إن الجهات الست للقرآن الكريم منورة مضيئة، مما يبين صدقه وعدله، نعم، فمن تحته أعمدة الحجج والبراهين، وعليه تتألق سكة الإعجاز، وبين يديه وهدفه هدايا سعادة الدارين، ومن خلفه أي نقطة استناده حقائق الوحي السماوي، وعن يمينه تصديق ما لا يحد من أدلة العقول المستقيمة، وعن يساره الاطمئنان الجاد والانجذاب الخالص والاستسلام التام للقلوب السليمة والضائر الطاهرة".²

وقد شرح الأمر أكثر في المكتوبات بقوله: "إن الجهات الست للقرآن الكريم منورة وضاعة لا تدنو منها الشبهات والأوهام، لأن:

- من ورائه العرش الأعظم، يستند إليه، فهناك نور الوحي.

- وبين يديه سعادة الدارين، يستهدفها، فقد امتدت ارتباطاته وعلاقته بالأبد

والآخرة فهناك نور الجنة ونور السعادة.

1- محمد الغزالي، ظلام من الغرب، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1420-1999: ص 144-146.

2- الكلمات: ص 566.

- ومن فوقه تتلأ آية الإعجاز وتسطع طغراؤه.
- ومن تحته أعمدة البراهين الرصينة والدلائل الدامغة، ففيها الهداية المحضة .
- وعن يمينه يقف استنطاق العقول وتصديقها، لكثرة ما فيه: " أفلا يعقلون".
- وعن يساره استشهاد الوجدان حتى ينطق من إعجابه: من "تبارك الله" بما
ينفخ نفحات روحية للقلب".¹

ومن خلال هذه الفقرة، نجد أن نظرية المعرفة في القرآن تتمثل -بتعبير
موضوعي- في ما يلي:

مصدرها: حقائق الوحي السماوي، ومقتضيات العقل السليم، وقد أشار إلى
التوافق التام بين الوحي والعقل، من خلال عشرات الآيات التي تدعو إلى استخدام
الفكر والنظر في القرآن الكريم، فلا تعارض بينهما، وبالتالي فالمفترض في العقل أن
يوصل إلى الإيمان لا إلى الإلحاد كما حدث عند بعض فلاسفة الغرب.

قال: "إن أوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها، تحيل الإنسان إلى العقل قائلة:
راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان وشاورهما، حتى يتبين لك صدق هذه الحقيقة.
فانظروا مثلاً إلى قوله تعالى: (فاعلموا، فاعلم، أفلا يعقلون، أفلم ينظروا، أفلا
يتذكرون، أفلا يتدبرون، فاعتبروا يا أولي الأبصار)".²

وسيلتها: الحجة والبرهان، وهما يقابلان الوهم والخرافة.

صورتها: الإعجاز بمختلف أنواعه كما ورد في القرآن الكريم.

نتيجتها: الاستسلام والاطمئنان.

غايتها: سعادة الدارين.

كما عقد مقارنة بين "الهدى"، وهو مصطلح أطلقه على العلم والمعرفة-، عقد
مقارنة له كما هو عند الغربيين، مع نظرة القرآن الكريم، ويمكن إيجاز تلك المقارنة في
الجدول الآتي:

1- المكتوبات: ص 256-257.

2- الخطبة الشامية: ص 26.

| المعرفة في المنظور القرآني | المعرفة في المنظور الغربي |
|---|--|
| مصدرها الوحي الإلهي | مصدرها المادة |
| فعالة في القلب، تدفع الدماغ إلى النشاط | فعالة في الدماغ، وتعكّر صفو القلب |
| ترى الجسم وعاء للروح وخادما لها | تتعامل مع الجسم البحت وتنكر الروح، |
| تمنح السعادة للإنسان وتخدم الدارين، وتحفظ إنسانية المجتمع. | تجعل الإنسان عبدا للمادة وتنكر ما وراءها، وتحول الإنسان إلى كائن متوحش أناني |
| تعرف الصنعة المألقة للشعور، وتقدر القدرة الحكيمة، فتحيي بذلك عقيدة التوحيد. | تعبد الطبيعة الصماء، وتطيع القوة العمياء، وتنشر عقيدة الكفر والإلحاد. |

وقد فسّر النورسي بهذه المقارنة الوضع المتردي الذي آلت إليه البشرية، فقال: "إنّ ضلال البشرية وعنادها النمروذي وغرورها الفرعوني، تضخّم وانتفش حتى بلغ السماء ومسّ حكمة الخلق، وأنزل من السماوات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا، تلك هي الحرب العالمية الحاضرة، إذ أنزل الله سبحانه لطمة قوية على النصرارى بل على البشرية قاطبة، لأن أحد أسبابها التي يشترك فيها الناس كلهم هو الضلال الناشئ من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكّم الهوى".¹

وقال أيضا منتقدا الفلسفة المادية: "الفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سببت في سريان حمى مهلكة في البشرية، وعرضها للغضب الإلهي. فكلما توسعت قابلية التمرد والانتقاد بالتلقين والتقليد توسّع ذلك الطاعون أيضًا وانتشر. فانبهار الإنسان

1- الكلمات: ص 917.

بالعلوم، وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة أعطاه الحرية وروح الانتقاد والتمرد، فظهر الضلال من غروره¹.

ويشء من التفصيل، نجد النورسي يجدد المسلمات التي ينبغي أخذها بالحسبان في حقل البحث العلمي في شتى فروع المعرفة، يمكن إيجازها في العناصر الآتية:
- الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، وهذا الحكم يصادّ مبدأ الصدفة الذي تأسست عليه كثير من الرؤى والأفكار الغربية.

- الشر والقبح والباطل والسيئات جزئي وتبعي وثنائي في خلقه الكون، والغاية من وجود النقص والشر إظهار أنواع الخير والجمال الكليين، فالمقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنما هو الخير والحسن والكمال، وفي هذا ردّ على من يدعي العبيثية في الخلق بوجود الآفات والشرور.

- الإنسان أشرف المخلوقات وأكملها، لأنه يستطيع أن يكشف بعقله عن مراتب الأسباب الظاهرية في خلق الكائنات ونتائجها، ويعرف العلاقات بين العلل والأسباب المتسلسلة، ويستطيع أن يقلد بمهارته الجزئية الصنائع الإلهية والإيجاد الرباني المنتظم الحكيم، ويستطيع أن يدرك بعلمه الجزئي وبمهارته الجزئية إتقان الأفعال الإلهية.

- لا يكتمل شرف الإنسان إلا بتدينه واستقامته².

كما أشار النورسي إلى أن حركة الترجمة التي نشطت في العهد العباسي كان لها أثر غير مباشر في تلوث الفكر المسلم أيضا ببعض فلسفات الحضارة الغربية لاسيما اليونانية منها، نجد ذلك جليا في تأثير المنطق في بعض العلوم كالأصول وعلم الكلام مثلا، يقول: "لما ترجمت الفلسفة اليونانية في عصر المأمون، لضمها إلى الفكر الإسلامي، تلك الفلسفة الناشئة من منبع كثير من الأساطير والخرافات، حملت معها شيئا من العفونات، وتداخلت في أفكار العرب الصافية، فشوشت الأفكار إلى حد ما، وفتحت طريقا من التحقيق إلى التقليد، كما أتها صرفتهم عن الاستنباط بقرائحهم

1- المصدر نفسه: ص 938.

2- أنظر: الخطبة الشامية: ص 38-39.

الفطرية من معدن ماء حياة الإسلام إلى الافتقار بالتعلم على تلك الفلسفة المانعة للكمال".¹

خاتمة

- في ختام هذا البحث المختصر يمكن تحرير الملاحظات الآتية:
- أسس النورسي من خلال رسائل النور لمفهوم مرجعية القرآن الكريم في كل شأن من شؤون الحياة، وأبرز شموليته وهيمته على كل المعارف الإنسانية، ومسايرته لواقع الناس مهما تغيرت ظروفهم وأزمنتهم.
 - كانت نافذة النورسي في إثبات صلاحية القرآن الكريم لمعالجة الواقع تركيزه وإجلاؤه للإعجاز القرآني بمختلف صورته، لاسيما في الجانب التشريعي.
 - على الرغم من أن الجهد الإصلاحي للنورسي كان وليد الظروف المتردية التي عاصرها في عهده، إلا أن أفكاره وآراءه حملت طابع الشمول والصلاحية للتجسيد في كل بيئة تعيش نفس الأوضاع، وسبب ذلك أن عمدته في الإصلاح ارتكزت أساسا على القرآن الكريم، ولم ينطلق من مجرد آرائه واجتهاداته القابلة للخطأ.
 - المسألة الجوهرية التي دارت عليها أفكار النورسي في الجانب المعرفي أن العلم الإنساني المحض وحده لا يحقق بالضرورة السعادة للبشرية ما لم يكن منطلقه ومصدره الوحي الإلهي، ودليل ذلك تناقض وتهاوت الفلسفات الغربية على كثرتها، وعجزها عن الإجابة على أسئلة الكون، ومعالجة واقع الناس معالجة تامة مستمرة.
 - أثبت النورسي أن علة العلل فيما يعانیه المسلمون في واقعهم المعيش ابتعادهم عن التمثل بمعاني القرآن الكريم والخضوع لسننه، ويرى أن المخرج الوحيد هو العودة إلى القرآن فهما وتنزيلا، لأن وحدة المرجعية توحد الهدف وتوحد الجهد، وهو ما يشكو المسلمون من انعدامه في الواقع.

1- المحاكمات: ترجمة إحسان الصالح، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992: ص 32.

- لم يستوف النورسي مضامين القرآن ومنهجه في الإصلاح بشكل كامل، وإنما كانت له إشارات واستنباطات مفتوحة ينقصها الترتيب وفق نسق منهجي دقيق، على أنها تمثل أرضية هامة للانطلاق في التأسيس لما نسميه "فقه السنن"، والله أعلم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- بديع الزمان سعيد ميرزا النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992.
- النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992.
- النورسي، الشعاعات: ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1993.
- النورسي، اللمعات: ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1993.
- النورسي، المحاكمات: ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992.
- النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1992.
- النورسي، ملحق قسطموني، ترجمة إحسان الصالحى، الناشر: دار سوزلر، اسطنبول، 1995.
- روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، تعريب: عمرو زهيري، الناشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1420-1999.
- زياد خليل محمد الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، الناشر: دار النيل، إزمير، تركيا، الطبعة الأولى، 1419-1998.
- عبد الله محمود الطنطاوي، منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418-1997.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1997.
- عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثانية، 1412-1992.
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.
- محمد الغزالي، ظلام من الغرب، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1420-1999.